قصة تلميذ فى القاهرة

ورقة النصيب

بقلم محمد سعيد العريان

المدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات

جلس « إسماعيل » على المقعد الخشبي بجانب غرفته على السطح ، يغنى فى حنين الواجد ولهفة المشتاق بعض أغنيات بلاده ، ويتابع بعينيه الشمس الغاربة منحدرة انحدارها اليومى كأنها جمرة كبيرة تطفأ فى النيل .

* * *

كان يعيش وحده فى هـذه الغرفة من منزل كبير فى حى (بولاق) يشرف من بُعد على النيل ، فكان أنسه وسلوته أن يجلس ببابها عصر كل يوم ، من لدن عودته من المدرسة حتى يعم الظلام ؛ ثم ينهض فيسرج مصباحه ويكبّ على مصوّراته ودفاتره .

وقد انحدر منذ عام واحد من بلده في الصعيد الأدنى ، عقب حصوله على (الشهادة) ليتم معارفه فى مدرسة الفنون .

كم كان مفتوناً بالقاهرة قبل أن يهبط إليها ، ولوعا بها أشد الولع ؛ ولعله لم يمن فى الجد والدأب للحصول على الشهادة ، إلا لأنه كان موعوداً بالبعثة إلى القاهرة إن جاز الامتحان !

فلما هبط إليها ، راحت تتضاءل وتتضاءل فى عينيه ، حتى لم يبقَ منها إلا هذا الحى العتيق الذى يسكنه ، وهذه الطريق الملتوية التى يسلكها كل يوم بين المدرسة والبيت ، وهذا السطح الذى يشرف منه على أطلال الحلم السعيد ، أطلال القاهرة التى عرفها في الخيال واستمتع فيها بلذة المنى ووهم الحب ودنيا الشباب !

وكم كان يتمنى أن يتيح له الحظ ليلة سعيدة من تلك الليالى العابثة التى عاشها فى القاهرة أول ما هبط إليها ! ولـكن ... من أين له المال ؟

إنه ما يزال يذكر فى لهفة وشوق تلك الليالى السعيدة ؛ وما يزال يذكر أيضاً فى ألم وحسرة أنه احتمل مما أنفق فى تلك الليلات ما لم تكن له به طاقة ، من ألم الجوع وذل الحرمان ؛ وأبى أن يكتب لأبيه يومئذ أنه فارغ اليد مما أسرف على نفسه وقنع من أحلامه بهذه السكنى الهادئة ، وأن يعيش من الجنة فى ظل حائطها الفينان .

وعرف فيه بنات الدار شابا جمّ الحياء ، عفيف اللسان والنظر ؛ فألفنَ الصعود إلى السطح فى الأصيل يستمعن إلى ترجيع أغانيه فى طرب ونشوة ، ثم يتفرقن قبل أن يزحف الظلام ؛ وألف إسماعيل أن يراهن كل يوم وأن يبادلهن الحديث البرىء فى شئون وفنون ... وزال الحجاب بينهما على الأيام .

* * *

وأطال إسماعيل الجلوس يومئذ حتى غابت الشمس ولم تصعد واحدة ؛ ترى ماذا منعهن الليلة ، وقد اعتاد واعتدن منذ شهر أو يزيد — منذ سكن هذه الدار — أن يجالسهن جميعاً أو أشتاتاً ساعة أو بعض ساعة كل مساء ؟

ومد الظلام رواقه على القاهرة وعلى قلب المبعد اللهفان !

ودخل غرفته فأشعل مصباحه وبسط دفتره ، فإذا هو لا يكاد يرى ، وإذا الكلمات والسطور تتلوى أمام عينيه ، كما تشاهد فرقة زنجية راقصة ! فطوى دفاتره ، وارتدى ثيابه ، وخرج إلى الطريق .

كانت الليلة ليلة الجمعة ، فلم يجد حرجاً عليه أن يقضيها فى (السيما) ... ووقف ببابها متردداً ، وهو يحصى النقود فى جيبه ، وعيناه تتبعان المارة أزواجاً وجماعات ، وهو وحده من بينهم لا يتأبط إلا همه ! ليته كان يستطيع أن يدعو واحدة من صديقاته فى الدار إلى نزهة ، فيصحبها ذراعاً إلى ذراع فى الطريق كهؤلاء الذين يرى ! ولكن من أين له ، من أين له المال ؟

كم يكفيه ليقضى ليلة سعيدة فى صحبة فتاته ؟ لقد عرف القاهرة الآن عرفاناً تاماً فلا سبيل إلى أن يُخدع . سيشاهد معها (السيما) فى شرفة ذات أستار ، ويتعشيان معاً فى مطعم فاخر ، ثم يستقلان سيارة إلى الهرم ، ويشترى لها مما

تهفو نفسها إليه فى الطريق ، وبعدئذ ... وبعدئذ يعودان إلى الدار ...

وفرغ من حسبته وهو يبسط أصابعه ويقبضها يحصى ما يراه سينفقه ، وعيناه تأخذاه كل من يمر به ..... جنيه ، جنيه واحد سيمنحه سعادة ليلة ، هكذا قدّر حسبته ! وسخر من نفسه حين انتهى إلى ذاك : من أين له الجنيه ؟

ومر به غلام يبيع الجنيهات بالقروش ، يبيع النصيب ؛ ومد إسماعيل يده فأعطى البائع قرشاً ، وتناول ورقة فطواها بعناية ووضعها فى جيبه ، كأنما هو يطوى الجنيه الذى سيصل بين يقظته وأحلامه . ثم عاد إلى البيت فلم يشهد السيما

لم يفكر فى شىء من أمره فى تلك الليلة ، فنام ملء عينيه وملء بطنه ! ورأى أباه فى المنام بجلبابه الأسود الفضفاض ، وعمامته التى تكبس أذنيه وبعض وجهه ، جالساً بين غرائر الفول على ظهر المركب المبحر إلى الشمال ، يحصى ربحه ونفقاته ، وقد اغبرت لحيته وعلا التراب كتفيه

ونهض فى الصباح فنسى كل ما كان من أمره ، وصعدت إحدى صواحبه إلى السطح لبعض شأنها ، فحيّته وحياها وهو يبتسم ؛ كأنما يخفى عنها نبأ سارّاً يريد أن يفجأها به . وعادت الفتاة وعاد إسماعيل إلى شئونه

وأوقد النار وراح يهيئ الفول بيده على طريقة بلاده . سوف لا يتغدى فى المدرسة هذا اليوم ، وفى فطوره الفول ما يغنى عن الغداء فلا تختل ميزانية اليوم !

ومرّ يومان ، وراح إسماعيل يكشف عن بخته بين أوراق النصيب ...

وترقّب الفتيات أن يسمعن غناءه فيصعدن إليه ، ولكنه لم يعد ، واستقل أول قطار إلى الصعيد ...

مائة جنيه ! يا للبخت ! لم تكن أحلامه لترتفع إلى ذلك ! إنها لثروة ...

وقسم النقود قسمين ، واشترى حافظة ثمينة فوضع فيها بعض ما ربح ، وخاط جيبه على الباقى ... لقد دبر أمراً ليخدع أباه حتى لا يحرمه المال كله

* * *

وخرج « الشيخ متولى » من المسجد ، يداعب سبحته بأصابعه ، ويتمتم بالتسبيح والدعاء ، وهو فى همّ لقدم ولده من غير داعية ...

وقبّل الفتى يد أبيه وقال له وهو يبتسم :

— « الحمد لله على سلامتك يا أبى ، لقد كنت مشتاقاً إليك ! »

— « مشتاقاً إلى ! وهل جئت من أجل ذلك ؟ حسبتُك رجلاً يا إسماعيل ! »

— « نعم ، ولكن ... »

— « ... ولكن الرجل يجب أن يكون على قوة احتمال وصبر ، ولستَ ولدى إن لم تكن رجلاً »

— « بلى ، وإنما قدمت لأمر ... »

— « أىّ أمر ؟ »

— « لقد ربحت خمسين جنيهاً فرأيت أن أجعلها عندك ! »

— « خمسين جنيهاً ؟ »

— « نعم ! »

وانبسطت أسارير الرجل ، وداعبتْ شفتيه ابتسامة ، واتسعت حدقتاه ، وعاد يقول :

— « ومن أين لك رأس المال ؟ لم تخبرنى من قبل أنك فى تجارة ! »

— « لقد ربحت ورقة نصيب ! »

— « وَىْ ! ورقة نصيب ؟ قمار ؟ ميسر ؟ »

واستوى عوده ، وانكمشت يده ، واختلجت شفتاه ، ثم قال :

— « لا لا ، ويحك ! لا تجعلها فى مالى ؛ إننى رجل شريف ، إن مالى من عرق جبينى فلا أريد أن يمحقه المال الحرام ! »

— « أبى ! »

— « أسكت ! قم فردها إليهم ، دعهم يفرقونها على أصحابها المساكين . من يدِ كمْ بائس اجتمعت القروش حتى عادت خمسين جنيهاً ؟ إنهم يخدعون الجهال البائسين فيسلبونهم القروش القليلة التى يملكونها ، ليوهموهم أنهم سيقاسمونهم بعض ما يجمعون ، بعضَ ما يسرقون ! »

— « وهل يمكن ... ؟ »

— « يمكن أو لا يمكن ، فلن أجعلها فى مالى ، إنها ملوثة ، قذرة ؛ هل تعرف من أين اجتمعت ؟ »

— « لا أعرف »

— « المال الحلال يُعرف دائماً مأتاه ... »

كان قلب الولد جذلان ووجهه عابس ، ولم تنته المناقشة بينهما إلى حد ؛ فقد تحرَّج الشيخ الورع أن يضمَّ ربح (الميسر) إلى ماله ، ولكنه لم يسأل نفسه عما سيفعل ولده بالمال

وعاد إسماعيل إلى القاهرة ، ولكنه لم يعد إلى داره إلا بعد ليال ثلاث

وأطل الفتيات من خلف الأبواب يشهدن إسماعيل عائداً إلى الدار ، يصعد الدرج فى زهو وكبرياء ، وعليه حلة جديدة ، وفى عينيه فتور وتكسُّر ينبىء أنه قضى ليله سهران

وترامى إليهن غناؤه من فوق السطح أكثر حنانا وفتنة ، كما بدا هو أكثر مرحاً ونشاطاً مما كان ، وتبادل الفتيات النظر ، ثم ولجن غرفهن وغلقن الأبواب

لم تحاول واحدة منهن أن تصعد إليه بمرأى صواحبها ؟ فقد بدا لهن مما تغير من هيئته وحركاته أنه شخص آخر غير إسماعيل الذي يعرفنه ويثقن بعفته وأدبه وكأنما أُلقى إليهن جميعاً معنى واحد ، فخجلن أن يبدون له ، وإن أخذت كل واحدة منهن تؤمل أن تجد فرصة من غفلة رفيقاتها لتصعد إليه وحدها

وسبقتهن (فلانة) إلى ذاك ، ولكنها لم تُظهر له أو لواحدة منهن أنها تعمدت الصعود إليه .

واستقبلها إسماعيل ضاحكا ، وهز يدها بلطف ، وجلسا يتبادلان الحديث ، ثم افترقا إلى ميعاد ... ووجد الفتى تعبير رؤياه ، وكان حلماً أشرق عليه الصبح فأتمته اليقظة التى تصنع الأحلام !

ولكنه لم يقنع بسعادة ليلة ، وعاد يتعرف القاهرة من جديد ، القاهرة التى فتنته قبل أن يراها ، والتى ذاق فيها من ألم الحرمان أكثر مما ذاق من لذة الوهم ؛

وزاح ينتقم لشهواته التي تمهما على ألم وضيق عاماً وبعض عام ونفدت دراهمه !

* * *

لم تجرِ سفينة الشيخ متولى مجراها كما كانت ، فركدتْ ريحه ، وأدبرتْ أيامه ؛ وعادت الأيام تقتضيه مضاعفة الجهد وبذْل الموفور .

وجلس إسماعيل مع أبيه ذات يوم سائفٍ بباب متجره ، ومرّ بائع النصيب ؛ وتحلّب لعاب الفتى وطارت أمانيه إلى هناك ، إلى القاهرة وليالى القاهرة ، وإلى فلانة وصواحب فلانة ! ولكنه أفاق من حلمه إذ رأى ذراعه إلى ذراع أبيه ... والتفت فإذا بائع النصيب واقف ، وإذا أبوه يخرج من جيبه أوراقاً يكشف بينها عن بخته ، ثم يمزقها ويلقيها ؛ وإذا هو يشترى غيرها فيطويها ويجعلها فى جيبه ، ليضم صدره على أمل جديد ... !

وتَبَالَهَ الفتى فنهض من مجلسه ليخفى ابتسامة ساخرة ، وعلى طرف لسانه كلام ...

لم يعد الشيخ متولى إلى سؤال نفسه : « من أين اجتمعت هذه الجنيهات التى يحاول أن يشتريها بالقروش ! فلعله كان يعلم أنها اجتمعت من قروشه الكثيرة التى أدّاها هو إلى باعة البخت ، منذ تعلم أن يحاول شراء البخت بالمال ... منذ ربح ولده ... ! »

* * *

وضحك (إبليس) من الشيخ متولى وهو يمزق الأوراق ويشترى غيرها ، وقال لشيطان صغير وهو يعلّمه :

« أُنظر هذا الأبله ؛ ما أرسلت إليه ابنَه إلا برسالتى ، فقد علقتْه الحيالة . حَسْبُ الإنسان الضعيف أن أُرِيَهُ الحرامَ مرة ؛ فهذا أول عملى فى طبيعته ... »

قال الشيطان الصغير : « ثم بعد ذلك ؟ »

قال المعلّم : « بعد ذلكَ — أيها الأبله — طبيعتُه ... ! »

محمد سعيد العريان